جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

العلاقة البينية بين علمي التاريخ والآثار
مدينة قَلْهات الإسلامية: حالة دراسية

محمد عبدالله القدحات
أستاذ مشارك
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس
qadahat@squ.edu.om

خالد دغلس
أستاذ مشارك
قسم الآثار
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة السلطان قابوس
khalidd@squ.edu.om

تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٥/٢٥
تاريخ القبول للنشر: ٢٠١٨/١/٢

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلاقة البينية بين علمي التاريخ والآثار مدينة قَلْهات الإسلامية: حالة دراسية

محمد عبدالله القدحات وخالد دغلس

الملخص:

تهدف الدراسة إلى بيان العلاقة التكاملية بين علمي التاريخ والآثار؛ فالآثار هي الشاهد الحقيقي على وقوع الحدث التاريخي؛ ولذا فإن الكشف عنها ودراستها وتصنيفها يجعلها مادة أصيلة للباحث التاريخي لا سيما في ظل غياب المصادر المكتوبة، وبالتالي فإن العمل المشترك بين الآثاري والمؤرخ ينتج نصاً تاريخياً متماسكاً، ومدعماً بأدلةٍ ماديةٍ ملموسةٍ، ولعل مدينة قَلْهات الإسلامية خير مثال على ذلك؛ فالمادة المدونة عن تاريخها الإسلامي لا تتعدى عدة روايات جاءت في كتب الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المدينة ووصفوها بالعامرة، والمزدهرة اقتصادياً، لكن تلك المادة المبتورة لا يمكن منها تدوين تاريخ المدينة الإسلامي؛ لذا فإن المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها في العقود الماضية، قد أماطت اللثام عن بعض من تاريخ المدينة الحضاري، ومستوى الحياة الاقتصادية لسكانها، ويتضح ذلك من بقايا القطع الفخارية والبورسلان والسيراميك التي كانت تستخدم في مناحي مختلفة من حياة أهل المدينة، كما أن الكشف عن معالم المدينة، مثل: الأسوار والحارات والمسجد الجامع، تمكن الباحث من دراسة خطط المدينة وشوارعها والمرافق العامة فيها.

الكلمات المفتاحية: علاقة بينية، منهج، علم التاريخ، علم الآثار، مدينة قَلْهات، عمان، التاريخ الإسلامي، المسجد الجامع.

Interrelationship between the History and Archaeology, Islamic City of Qalhāt: Case Study

Mohammed Abdullah Alqadahat and Khaled Douglas

Abstract:

This study aims to clarify the relationship between archaeology and history. Archaeological evidence can bear witness to historical events. Such events can be discovered, studied, and classified by archaeologists and presented to historians as authentic material, especially in the absence of written sources. Thus, the joint work between archaeologists and historians could help to reformulate past events into coherent historical records

The Islamic city of Qalhat is taken as an example in this study. It is almost absent from historical sources although it was a very important port city during the 13th to 17th century. On a very few occasions, it was mentioned by some travelers who visited the city and described it as a living and flourishing city. However, so few and such short records do not provide enough evidence of the history of the city. Only archaeology can narrate the complete story of the city where the earliest and latest phases of occupation were fully uncovered. Archaeological excavations revealed in detail the high level of architecture that the inhabitants of Qalhat had and how the city was well organized and divided into different quarters as well as the fortification system and an international network of trade relations. All of this archaeological evidence will enable historians to rewrite the history of the Islamic city of Qalhat based on solid grounds.

Keywords: Interrelationship, History, Archaeology, Qalhāt, Oman, Islamic History.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مشكلة الدراسة:

تواجه الباحث في التاريخ الإسلامي لعُمان مشكلة كبيرة تدفع الكثير من الباحثين إلى النأي عن الغوص في مفاصل ذلك التاريخ، ونقصد بذلك غياب المصادر التاريخية المكتوبة التي تتناول تاريخه، وفي الإشارات القليلة التي تضمنتها تلك المصادر حول عُمان، لا تتجاوز بيان موقف الخلافة تجاه الإقليم وأهله، فجاءت تلك الروايات لتعزيز موقف السلطة المركزية الأموية ومن ثم العباسية، اللتين حاولتا إخضاع عمان، وليس من أجل التأريخ للإقليم وأهله.

ويبدو أن هناك جملة من الأسباب وراء هذا الإغفال؛ فقد كان لموقع عُمان وتضاريسها الصعبة، أن جعلت من الصعوبة الوصول إليها إلا عن طريق البحر، علاوة على أن الجهة الغربية -التي يمكن الوصول من خلالها إلى أرض عُمان برًا- لا يمكن سلوكها، فقد مثّلت صحراء الربع الخالي حاجزاً طبيعيا منع الجيوش قبل الأفراد من سلوكه؛ فالنظرة الأولية للخارطة العُمانية تعطي انطباعاً في فهم التوزيع الديموغرافي للسكان، والطبوغرافيا الجغرافية التي أثرت بدورها في تشكيل أوجه كثيرة في الحياة العامة لعُمان[1]. وهذا انعكس بدوره على عدم قدرة الكثير ممن راودتهم فكرة الاطلاع على أحوال الإقليم، إلى العزوف عن تلك الفكرة.

وكان للحروب والصراعات التي ميزت تاريخ عُمان سواء في علاقتها مع سلطة الخلافة المركزية في دمشق ومن ثم بغداد، أو في علاقتها مع الدول التي تدور بفلكها، وتبعات الصراعات القبلية والحروب الداخلية التي أتت على هذا التراث في بعض الأحيان، ويظهر أن العزلة الجغرافية السياسية أفضت إلى انعزال عماني عن المراكز الفكرية عن المراكز الفكرية في العالم الإسلامي، مما أضعف مساهمتها في هذا التراث التاريخي (ولكنسون، ١٩٩٤: ٣٣-٣٤؛ الجالودي، ٢٠٠٣: ١٧).

أضافة إلى ذلك، فقد كان الخلاف المذهبي أحد أسباب إغفال المؤرخين المسلمين للتأريخ للحوادث التي جرت بعُمان، فالمؤرخون كانوا كغيرهم من المثقفين الذين يقيمون في الحواضر الإسلامية السنية كبغداد ودمشق والذين يمثلون الخط الرسمي في الكتابة التاريخية ينظرون إلى أنه إقليم خارجٌ عن الشرعية وطاعة الخلافة.

أما من جهة المثقف العماني، فقد كان للمعطيات السياسية والفكرية السالفة الذكر أثرها على طبيعة إنتاجه الفكري، فإن المواقف السلبية التي وقفها المركز (العاصمة) تجاهه، جعلته يجتهد في مجال العلوم الدينية أكثر من غيرها، محاولا تقعيد المذهب الإباضي ونشره بين أتباعه، وشرح مبادئه، وكان هذا برأيهم من الضرورات التي لا يجوز معها الاشتغال بغيره من العلوم، فكان الطابع الديني السمة الغالبة على ثقافته وإنتاجه الفكري (السالمي، ٢٠٠٠م: ج١، ٤). فلم نجد اهتماما في مجال التأريخ إلا ما جاء عرضًا ضمن المعالجات الفقهية.

وفي ظل تلك المعطيات، فإن المؤرخ يقف في كثير من الأحيان صامتاً، لا يستطيع الخوض في كثير من مفاصل التاريخ العُماني لا سيما الإسلامي منه، ولعل في التاريخ لمدينة قَلْهات خير مثال على ذلك، فقلة المادة المدونة عنها، تجعل الباحث يعزف عن الغوص في المجهول ويلوذ بالصمت.

وهنا تبرز حقيقة مهمة تميز المؤرخ الجاد في البحث عن الحقيقة، فيبحث عن مصادر أخرى لمعلوماته، تغطي ذلك النقص، ونقصد بذلك توجهه نحو ما تعارف عليه بالعلوم المساعدة لـ "علم التاريخ" وعلى رأسها علم الآثار.

أن هذه الدراسة ليست جديدة في إطارها النظري، ونقصد معالجة العلاقة البينية بين علمي التاريخ والآثار، بل هناك العديد من الدراسات النظرية التي ناقشت تلك العلاقة: (Sayev, 2006; Sauerm 2004a; Sauerm 2004b). كما أن هناك عدد من الدراسات التي تناولت أهداف علم الآثار ومنهجيته وبيان أهمية الكتابات التاريخية للآثاري، وتطرقت في بعض محاورها إلى تلك العلاقة (Binford 1962; Hodder 1986; Hodder and Hutson, 2003; Renfrew and Bahn,1991).

لقد تباينت آراء الباحثين في تفسير طبيعية العلاقة العلمية بين التخصصين، والتي كانت تتسم في أغلب الأحيان بعدم الرضى وأحيانا بالسلبية، وقد ينتهي الحوار بين العلمين في كثير من الأحيان إلى طريق مسدود. ويلاحظ ذلك بوضوح للمتتبع للدراسات المتعلقة بتأريخ وترتيب الأحداث التي ورد ذكرها في الكتب السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن)، وترتيبها فقد عدت هذه الكتب المقدسة أحد أهم المصادر التاريخية، وخاصة التوراة، وذلك لما ورد فيها من معلومات تفصيلية لوقائع سطرت أحداثها قبل الميلاد وبدايات الألفية الأولى الميلادية، فعلم التاريخ يعتمد على المفهوم النظري في تحليل النص التاريخي لبناء وترتيب أحداث مرحلة ما وقعت في فضاء جغرافي محدد، في حين يتبنى علم الآثار في تحليله لنفس الأحداث على المنهج العلمي والدليل المادي، ولذلك نجد أن العلاقة بين التاريخ والآثار تكون في كثير من الأحيان غير متكافئة، حيث تسير في اتجاه واحد، أي بمعنى أن علم التاريخ يستخدم أحياناً المادة الأثرية في تأطير مرحلة تاريخية معينة، بينما لا يستخدم علم الآثار المعلومة التاريخية لبناء معرفته، وأحيانا يحارب ويستثنى إذا ما اعتمد عليها كأساس في منهجه، وخير دليل على ذلك ما يواجهه المتخصصون في علم الآثار التوراتي (Biblical Archaeology) والذي يعتمد بشكل أساسي في تحليله وتفسيره وتأريخه للآثار خاصة تلك المرتبطة بقصص التوراة والإنجيل، على ما ورد في تلك الكتب السماوية من أحداث، إذ يُنظر إلى النصوص التي ذكرت في التوراة على أنها تعرضت للتعديل والتغيير في مراحل زمنية مختلفة، مما أدى إلى إحداث تغيير وابتعاد عن واقعية الحدث، مثلما هو الحال بالنسبة لكثير من النصوص التاريخية الأخرى، التي ربما تم اختيار أحداثها وتدوينها بناءً على حسابات شخصية، ومعايير غير موضوعية، فكان النص بعيد كل البعد عن الحقيقة[2].

أما علم الآثار فهو على النقيض من ذلك، إذ إنه يعتمد الدليل الأثري الذي يشبه المصادر الأصلية للحدث، الذي لم يتعرض إلى إعادة تشكيل أو تحوير أو إعادة صياغة، فبقي يتحدث عن أصالة الحدث في الماضي، وبهذا فهو يعتبر أكثر موضوعية من النص التاريخي. ومن أجل ذلك، يجب السماع للمادة الأثرية وفهم لغتها؛ فعلى سبيل المثال يمكن أن تتحدث بقايا عظام الحيوانات من موقع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أثري ما، عن اقتصاديات الناس وغذائهم، وتمثل البقايا المعمارية شاهداً أيضا على طبقية المجتمع والعلاقات الاجتماعية بين أفرد المجتمع، كما يمكن للمرفقات الجنائزية والأدوات الدينية أن تتحدث بوضوح عن المعتقد الديني والممارسات والطقوس الدينية التي كان يمارسها الإنسان بشكل فردي أو عائلي أو مجتمعي.

ومع قدرة علم الآثار على تصوير أحداث الماضي أكثر من علم التاريخ، إلا أنه لا يستطيع تقديم حلول واضحة لكثير من المشاكل التاريخية والسياسية، التي يمكن أن يسهم علم التاريخ بتوضيحها أكثر؛ فعلى سبيل المثال لا يمكن لعلم الآثار أن يقدم تسلسلاً زمنياً تفصيلياً لمرحلة ما، مثل تسلسل حكم لمنطقة ما، اعتماداً على تصنيف الفخار أو التحليل بواسطة الكربون (المشع ١٤).

كما أنه لا يستطيع (علم الآثار) التحدث وبشكل تفصيلي عن الأعراق أو أصول الشعوب، معتمداً فقط على المادة الأثرية المكتشفة في المواقع الأثرية، وفي نفس الوقت لا يستطيع الحديث عن التاريخ السياسي أو العلاقات السياسية بين مجموعات سكانية مختلفة؛ فيمكن لعلم الآثار تحديد إذا ما تم تدمير مدينة أثرية ما، والفترة الزمنية التي دمرت فيها، لكن لا يستطيع تحديد الجماعات التي دمرت تلك المدينة أو الخلفية السياسية وراء ذلك التدمير.

ونتيجة لهذه الجدلية المزمنة في العلاقة بين التاريخ والآثار، فقد ظهرت في الآونة الاخيرة توجهات جديدة لتعزيز الإيجابية في العلاقة البينية بين التاريخ والآثار، توجهات تؤكد على اهمية المصدر التاريخي؛ لفهم المادة الأثرية وتحليلها، والعكس صحيح. ويعتبر روبرت كارتر (Robert Carter) أحد الأمثلة الجيدة على ذلك، فقد استعان في دراسته للتاريخ الحديث لدولة قطر في القرن العشرين بالتنقيب في البقايا المعمارية والأدوات التي كانت تستعمل في خمسينات وستينات القرن الماضي، المتناثرة بين المباني الحديثة في مدينة الدوحة، فعمل على مطابقة النصوص التاريخية الكتابية المتوفرة، التي تعتبر حديثة نسبياً، مع مخلفات المواد التي استعملها السكان في العقود الماضية، مما مكنه من عمل إعادة تصور للصورة الحقيقية التي كانت عليها الدوحة والمراحل المختلفة للتطور الذي شهدته المدينة (Carter, 2016).

ويمكن القول مما سبق، إن علمي التاريخ والآثار يعبران عن حالة تكاملية ويتفقان في الهدف، فعلم التاريخ يهدف إلى تسجيل تاريخ الأمم والشعوب، وهو الهدف عينه الذي يرمي إليه المشتغلون بالآثار، فقد حدد عالم الآثار ر. إتكنسون (Atkinson) هدف علم الآثار بدراسة ماضي الإنسان عن طريق حضارته المادية (Atkinson, 1965: 4). وقد ازدادت أهمية علم الآثار في هذا المجال بعد التطورات العلمية التي سخرها المشتغلون في هذا المجال مثل تقنية التأريخ بواسطة الكربون المشع ١٤ والتصوير الجوي باستخدام الطائرات[٣] للكشف عن المواقع الأثرية (دفع الله ٢٠٠٩: ٨٠).

ولعل التأريخ لمدينة قَلْهات خلال العصور الإسلامية خير مثال على ذلك، فما توفر من مادة في كتب التاريخ لا يشفي الغليل، ولا بناء عليه كتابة تاريخ متسلسل لهذه المدينة التي تستمد عراقتها من موقعها ودوره في الحياة الاقتصادية لعمان، باعتبارها أول عاصمة لهذا الإقليم، وما شهدته أرضها من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية. وهنا لا بد للباحث من الاستعانة بمصادر أخرى تكمل الصورة التاريخية للمدينة، ونقصد هنا الإفادة مما توصل إليه علماء الآثار عبر جهد دام أكثر من خمس وعشرين سنة خلت، فكان علم الآثار الأكثر جرأةً في السعي إلى كشف اللثام عن الأحداث التي عاشتها المدينة في الماضي، مستعيناً بأدواته العلمية ومنهجه التحليلي المقارن، مما مكنه من إثراء المعرفة في تاريخ المدينة. فتكاملت هناك واندمجت المعرفة المنبثقة من المصادر التاريخية مع تلك المنبثقة من نتائج البحث الأثري.

وتمكنت البعثات الأثرية من الكشف عن كثير من أسرار تاريخ تلك المدينة، التي كانت ترقد بين ثنايا تلال من الأتربة وركامات حجرية، والتي كانت تخفي الكثير من أسرارها التي تمثل في النهاية الفضاء الحقيقي للنشاط الإنساني. وبالتالي فإن العمل المشترك بين علماء الآثار والمؤرخين ينتج نصاً تاريخياً يعبر عن واقع تلك الفترة الزمنية، وذلك من خلال ما يقدمه الآثاري من وصف للأثر وتحليله وتحديد زمنه، ويقوم المؤرخ بصياغته في النهاية صياغة تاريخية.

أهمية الدراسة:

تأتي هذه الدراسة بعنوان: "التكامل بين التاريخ والآثار. مدينة قَلْهات الاسلامية: حالة دراسية" لبيان ذلك الترابط والتداخل بين علمي الآثار والتاريخ، فقَلْهات تلك المدينة الإسلامية النشطة اقتصادياً وحضارياً على مدى عدة قرون من الزمان، لم نجد في مصادرنا المكتوبة ما يوضح مكانتها التاريخية، فما توفر لا يتعدى عدة روايات متباعدة زمانياً، بعضها يعود للقرن الثالث الهجري وبعضها إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين، والرواية الأخيرة تتمثل بما أورده ابن بطوطة الرحالة المغربي الذي زار قَلْهات في القرن الثامن الهجري، حيث يقف المؤرخ المعاصر عاجزاً عن كتابة تاريخ المدينة في ظل غياب المواد الأولية، ونقصد بها المصادر المكتوبة. وعندما استند على ما تعارف عليه من مصادر مساعدة لكتابة التاريخ مثل: كتب الجغرافيا التاريخية، والمصادر الأدبية، أو حتى المدونات الفقهية، سيصاب بخيبة أمل أخرى، فإن ما أوردته لا يمكن أن يَكتب تاريخاً للمدينة بكل مفاصله وتسلسله الزمني.

ومع ما حظيت به المدينة من زيارات لعدد من الرحالة العرب المسلمين وكذلك الأوربيين[٤]، إلا أن وصفهم للمدينة كانت سمته العامة الإعجاب بحسن البناء، وما رأوه من غريب عادات أهلها، فلم يكن همّ أحد منهم الغوص في تاريخ المكان. ونجد لهم العذر بأن هؤلاء لم يكونوا مؤرخين بل رحالة وجغرافيين، يسجلون في مدوناته ما ثبت في الذاكرة من مشاهدات نادرة.

منهج الدراسة:

يقوم المنهج المتبع في إعداد الدراسة على أساسين اثنين: الأول، تتبع الروايات الوصفية -وإن كانت نَزِرةً في عددها ومحتواها- وترتيبها حسب التسلسل الزمني لتطور الأحداث. أما الأساس الثاني، فيعتمد على جهود علماء الآثار، فمن جهودهم وتقاريرهم العلمية، يمكن للمؤرخ البحث في تفاصيل تاريخ المدينة وكتابة ما أغفلته كتب

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التاريخ العام. ونبدأ الخطوة الأولى بالتعرف على ما قدمه المؤرخ من مادة تاريخية تتعلق بالمكان، ونقصد مدينة قَلْهات.

قَلْهات المُسمّى والموقع:

اتفق اللغويون والجغرافيون المسلمون على ضبط اسم قَلْهات، قال ابن دريد في الجمهرة "قَلْهات بالفتح" (الجمهرة، ١٩٨٧: ج٢، ١١٢٩). وقال البكري "قَلْهات: بفتح أوّله، وإسكان ثانيه: موضع ذكره أبو بكر، وكذلك قلهة مفرد" (البكري، ١٤٠٣هـ: ج٣، ١٠٩٣)، ونحو ذلك ذهب ياقوت الحموي "بالفتح ثم السكون، وآخره تاء، لعلّه جمع قلهة، وهو بئر يكون في الجسد" (ياقوت، ١٩٩٥: ج٤، ٣٩٣؛ الحميري، ١٩٨٠: ج٣، ١١١٩). ولعل ما يعزز هذا الرأي هو ضبط الاسم من قبل ابن بطوطة، والذي زار المدينة ومكث بها عدة أيام، فقال "ثمّ وصلنا إلى مدينة قَلْهات، وضبط اسمها بفتح القاف وإسكان اللام وآخره تاء مثنّاة" (ابن بطوطة، ١٤١٧هـ: ج٢، ١٣٥). ولم تسعفنا المصادر حول سبب التسمية؛ فالنص الوحيد الذي أورده ابن المجاور لا يمكن الركون إلى أن ما ذكره هو السبب الحقيقي وراء التسمية[٥].

لمحة تاريخية عن مدينة قَلْهات:

تعد قَلْهات من أقدم المدن والموانئ العُمانية (نيبور، ٢٠١٣: ٢٦٥)، وهي تقع على حافة جرف بحري يبعد عن مدينة صور عاصمة المنطقة الشرقية بحوالي ٢٥ كم باتجاه الشمال الغربي، وتبعد عن مدينة مسقط بنحو ١٥٠ كم إلى الجنوب الشرقي (شكل ١).

تكمن أهمية هذه المدينة في أنها أول عاصمة عُمانية عرفها التاريخ قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، ذلك أن مالك بن فهم الأزدي عندما هاجر بقومه الأزد إلى عُمان من بلاد اليمن إثر انهيار سدّ مأرب (ابن قتيبة، ١٩٩٢: ج١، ٦٤٥؛ الحلي، ١٩٨٤: ٨٨؛ علي، ٢٠٠١: ج٧، ٢٠٢) اتخذها عاصمةً ومستقراً. وقد استهل العوتبي الصحاري كتابه الأنساب برحلة مالك وقومه من عرب الأزد الذي سلك في رحلته الطريق عبر حضرموت، ومن هناك بعث ابنه على رأس سرية استطلاع وصلت إلى قَلْهات، وبعد ذلك توجه مالك بن فهم بمن معه حتى جاء قَلْهات، واتخذ مالك بن فهم وأفراد قبيلة الأزد منها محطة للاستعداد لمواجهة الفرس الذين أعلنوا العداء للأزد مجرد وصولهم عُمان. وكان الفرس قد سيطروا على المنطقة الساحلية من عُمان، وجعلوا مركزهم مدينة صحار[٦].

وكان للموقع الإستراتيجي الذي امتاز به إقليم عمان والمطل على مساحة واسعة من المسطحات المائية، دور في أن انعكس ذلك على طبيعة الحياة والنشاط الاقتصادي لأهل الإقليم منذ القدم، فقد سجل التاريخ ارتباط العمانيين بالبحر وتجارته، حتى غدوا مع الأيام من أشهر ملاحي البحر في منطقة الخليج والعالم آنذاك (رايس،٢٠٠٢: ٣٥٧-٣٥٨). وبالتالي ظهرت الكثير من المراكز التجارية على طول الساحل العماني من شماله إلى جنوبه. وتعد صُحار من المراكز التجارية الهامة التي ظهرت منذ ما قبل الإسلام، وخاصة بعد السيطرة الفارسية على المناطق الساحلية الشمالية (العوتبي، ١٩٨٤: ج٢، ٢١٦).

وقد كان لدخول أهل عمان في الإسلام بعد دعوة الرسول -صلى

شكل (١) موقع مدينة قَلْهات الأثري (Google Earth).

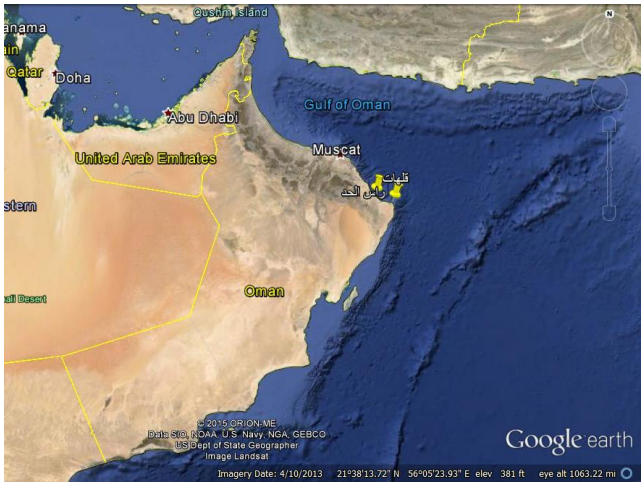

الله عليه وسلم- أن منحهم ذلك طاقةً روحيةً أسهمت في خوضهم معارك لتحرير بلدهم من الاحتلال الفارسي بقيادة ملكي عمان آنذاك جيفر وعبد ابني الجلندى (المعولي، ٢٠٠٨: ٥-٥١). وقد استمرت أهمية صُحار بعد الإسلام على أنها مركز تجاري وسياسي مهيمن، وقد وصفها المقدسي البشاري (ت ٣٧٥هـ\ ٩٨٥م) "صحار قصبة عمان، ذو يسار وتجار، عامر، آهِل، حسن، أثرى من زبيد وصنعاء" (المقدسي، ١٩٠٦: ٩٢). وظلت صحار عاصمة الإقليم ومركزه التجاري الرئيس طوال العصور الإسلامية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، حيث كانت مقراً لولاة العباسيين منذ عام ٢٨٠هـ\ (المنذري، ٢٠٠٨: ٦٧-٧٠).

ويبدو أن قَلْهات أخذت بالنمو والازدهار بعد تخريب القرامطة لمدينة صحار واتخاذها مركزاً إدارياً[٧]، فحلت بموقعها التجاري محل صحار عاصمة سياسية واقتصادية لإقليم عُمان. قال الدمشقي "وبُني بعد ذلك قَلْهات على ساحل البحر. ومن مدن قَلْهات صور" (الدمشقي، ١٩٦٦: ٢٨٧). وقد رسم الرحالة ابن المجاور برسم مخطط للمدينة يظهر فيه أن شكلها كان أقرب إلى المثلث قاعدته على البحر، وأضاف ابن المجاور أن مالك بن فهم قد أحاط المدينة بسور من الجص والحجر (ابن المجاور، ٢٠١٠: ٣٠٢).

ويؤكد هذا التحول في تاريخ مدينة قَلْهات ما أورده ياقوت؛ فقد أشار إلى أن عمارة المدينة كان بعد سنة خمسمائة للهجرة، فقد قال ياقوت «وهي مدينة بعُمان على ساحل البحر إليها ترفأ أكثر سفن الهند، وهي الآن فرضة تلك البلاد، وأمثل أعمال عُمان عامرة آهلة وليست بالقديمة في العمارة، ولا أظنها تمصّرت إلا بعد الخمسمائة، وهي لصاحب هرمز، وأهلها كلهم خوارج إباضيّة إلى هذه الغاية يتظاهرون بذلك ولا يخفونه (ياقوت، ١٩٩٥: ج٤، ٣٩).

وقد ظلت قَلْهات مركزاً تجارياً مهماً حتى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وهذا ما أكده الرحالة الإيطالي ماركوبولو الذي زار عُمان في طريق عودته من بلاد المغول، فقد أشار إلى أن صحار بدأت تفقد اهميتها التجارية وحلت مكانها مدينتا قَلْهات وظفار (ماركوبولو، ١٩٧٠: ٣٤). وقد ذكر المدينة باسم قلاياتي، وذكر المدينة في أخبار رحلاته ووصف ميناءها الكبير، الذي يستقبل السفن التجارية القادمة من الهند بسبب أهمية موقعه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كميناء تجاري وسيط لنقل مختلف البضائع والسلع (ماركوبولو، ١٩٧٠: ٣٤).

كما أشار ماركوبولو إلى الوضع السياسي لقَلْهات؛ فقد أوضح أنها في وقت زيارته كانت تحت سيطرة ملك هرمز التابع لحاكم كرمان. وقد كان لحصانة المدينة أثره في أنها صارت ملجأً لملك هرمز حين يتعرض لأي خطر (ماركوبولو، ١٩٧٠: ٣٤).

وبعد خمسين عاما على زيارة الإيطالي ماركوبولو زارها الرحالة المغربي ابن بطوطة، والذي أظهر انبهاره بالمدينة وازدهارها التجاري "أهلها أصحاب تجارة تعتمد كلياً على التعامل مع السفن التجارية القادمة من الهند". وقد أظهر إعجابه بتنظيم السوق فيها "يوجد في قَلْهات أسواق ممتازة"، وكان أكثر ما لفت انتباهه مسجدها الجامع والذي وصفه بقوله "ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشانيّ وهو شبه الزلّيج، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى، وهو من عمارة الصّالحة بيبي مريم، ومعنى بيبي عندهم الحرّة" (ابن بطوطة ١٤١٧هـ: ج٢، ١٦٣).

ومع نهاية القرن الثامن الهجري (الخامس عشر الميلادي)، بدأت قَلْهات بالتراجع إلى أن وصلت حالتها إلى التدهور الواضح. وقد أوضح باقر اعتماداً على المؤرخ البرتغالي "براس" أن حالة التدهور هذه تعود إلى جملة عوامل من أهمها الدمار الجزئي الذي أصاب المدينة في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلاد بسبب زلزال (باقر ٢٠٠٨: ١١).

وشهد مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) حركةً استعماريةً قادتها البرتغال في منطقة الخليج العربي، حيث وصلت سفن أسطولهم إلى سواحل عُمان، ففي عام ١٥٠٨م حاصر الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك مدينة قَلْهات من البحر ووجه مدافعه نحو المدينة وأهلها "وبعد معركة ضارية مع سكانها توجه البوكيرك إلى شاطئ المدينة وأمر بإضرام النيران في بيوتها بما كان فيها من السكان وأحرق الجامع الكبير" (Albuquerque, 1964: 106). وفي مذكرات البوكيرك التي كتبها حفيده، وصف يدل على الهمجية التي تعامل بها البرتغاليون مع المدينة وأهلها، لكنه حفظ لنا وصفاً لبعض معالم المدينة التاريخية كالمسجد الجامع وبعضاً من تفاصيله المعمارية، التي تدل على الطراز المعماري المتميز خلال تلك الفترة (Albuquerque, 1964:106)[٨].

هذا هو كل ما توفر لنا من مادة تاريخية عن مدينة قَلْهات، وهي مادة لا نستطيع من خلالها تتبع التطور التاريخي والحضري للمدينة التي شهدت أحداثاً سياسيةً كبيرةً، وفي الوقت نفسه مدينة تطورت من مجرد قرية عند تأسيسها لتصبح عاصمةً ومركزاً تجارياً مهماً على ساحل الخليج، فيها الميناء الذي كان يشهد حركةً تجاريةً نشطةً، وفي المدينة تفاصيل المرافق العامة مثل: المساجد، والمقابر، والحارات وغير ذلك. وهنا يلوذ المؤرخ بالصمت، فليس لديه أكثر من ذلك ليقدمه، ويأتي دور علم الآثار ليكشف من خفايا تلك المدينة وكنوزها التي اختفت معالمها تحت التراب.

تاريخ البحث الأثري لمدينة قَلْهات:

ارتبطت بداية العمل الأثري في مدينة قَلْهات بمشروع التراث البحري العُماني، والذي كان بإدارة توم فوسمر (T. Vosmer) فقد نفذ الفريق أول مسح أثري تفصيلي شامل لمدينة قَلْهات سنة ١٩٨٩م. وفي عام ٢٠٠٣م وضع الفريق أول حفرية أثرية في الموقع، فقد تم تنقيب مناطق صغيرة ومحددة مثل الحمام الواقع في الجزء الغربي من الموقع، بالإضافة إلى مجسين اختباريين في الجهة الشرقية للموقع. كما تم عمل مسح أثري تحت سطح البحر قبالة شواطئ المدينة الأثرية من قبل نفس الفريق (Vosmer, 2004).

وفي سنة ١٩٩٧ نفذ قسم الآثار في جامعة السلطان قابوس وتحت إشراف كل من معاوية إبراهيم وعلي الماحي، مسحاً أثرياً للمدينة الأثرية، كجزء من مشروع المسح الأثري للمنطقة الواقعة بين مسقط وصور (Ibrahim and El-Mahi 2000: 131).

وفي سنة ٢٠٠٧م بدأت وزارة التراث والثقافة بمشروع آثاري موسع بالتعاون مع فريق فرنسي بإدارة إكسل روجيل (Axelle Rougeulle)، وفريق آخر إيراني بإدارة محسن الجعفري، وما زال المشروع مستمراً حتى الوقت الحاضر. وقد وضعت الأهداف الآتية للمشروع:

١- الكشف عن المراحل المختلفة لتاريخ مدينة قَلْهات الأثرية منذ مرحلة التأسيس مروراً بمراحل الازدهار وحتى الاضمحلال، والتعرف على الحياة الاقتصادية لسكان المدينة الأثرية وعلاقاتهم التجارية، والدور الذي أداه ميناء المدينة في شبكة التجارة في المحيط الهندي خلال فترة هرمز، وذلك لندرة المعلومات التاريخية التي توثق هذا الفترة.

٢- التعرف على مخطط مدن العصور الوسطى العُمانية بشكل عام، وتكون مدينة قَلْهات الأثرية مثالاً عليها، وذلك لتميزها بأنها مازالت محافظةً على بقاياها الأثرية تحت الركامات الأثرية.

نتائج المسح الأثري:

قام الفريق الفرنسي بإدارة إكسل روجيل (Rougeulle)[٩] مسحاً أثرياً في سنة ٢٠٠٧م، تبعه ثلاثة مواسم من التنقيبات الأثرية في السنوات ٢٠٠٨-٢٠١٠م. فقد تمكن الفريق من الوصول إلى نتائج مهمة جداً، يمكن منها كتابة جوانب مهمة من تاريخ المدينة المادي. ومن أبرز تلك النتائج:

- المخطط العام للمدينة الأثرية وتقسيماتها الداخلية:

تم ذلك بالاستعانة بتقنية نظام (GIS)، وتقنية تحديد منسوب الارتفاعات الرقمي (Digital Elevation Model) والتصوير الجوي. وهنا تمكن علماء الآثار من الكشف عن أن المدينة كانت قد انشئت بناءً على مخطط وضع مسبقا لها، حيث بنيت على شكل مثلث متساوي الأضلاع، يبلغ طول الضلع الواحد فيه ٩٠٠م وبمساحة إجمالية تقدر ب ٣٥ هكتار. ومحاطة بجدارٍ دفاعي مدعم بعدد كبير من الأبراج الدفاعية (Rougeulle 2010: 305)، وعثر على بقايا الجدار الدفاعي المحيط في المدينة في الجهة الجنوبية الغربية والجهة الشمالية منها. أما الجهة المطلة على البحر، فقد كانت معظم آثار الجدار مختفيةً تماماً، ولكن وبالاستعانة بالمصادر التاريخية، وخاصة بالمخطط الذي رسمه ابن المجاور للمدينة، والذي يظهر فيه أن المدينة كانت محاطة بجدار من ناحية البحر، فقد استطاع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفريق الكشف عن بقاياه بالإضافة إلى عدد من الأبراج الدفاعية التي كانت مرتبطة به (Rougeulle, 2010 : 307).

- بوابات المدينة:

كشفت الحفريات الأثرية عن وجود عدد من البوابات للمدينة، وذلك على الرغم من تعرض أجزاء كبيرة من جدار المدينة للانجراف والتدمير، وقد تطابق ذلك مع ما وصفه البرتغاليون عن أن المدينة كان لها عدد من البوابات، فقد تم التعرف على الأقل على ثلاث منها (B8, B25, B37)، إذ يعتقد المنقبون أن البوابة الجنوبية (B8) كانت البوابة الرئيسة للمدينة، والتي كانت محاطةً ببرجين دفاعيين (Rougeulle, Creissen, Bernard, 2012: Fig. 1) كما نقب الفريق الأثري في البوابة الشمالية للمدينة (B37)، وفيها تم الكشف عن ثلاث مراحل معمارية مختلفة لمنطقة البوابة (Rougeulle, 2010, Fig. 3)، حيث أشار الدليل الأثري إلى أن المدينة لم تكن محصنةً بجدارٍ دفاعي في المرحلة الأولى، وبالتالي لم تكن البوابة موجودة، وأنه تم في المرحلة الثانية بناء الجدار التحصيني للمدينة وكذلك البوابة، أما في المرحلة الثالثة، فقد تم إعادة بناء الجزء الغربي من البوابة، وفيها تم أيضاً تضيق البوابة لمترين.

وقد أرخ المنقبون المرحلة الأولى إلى ما قبل سنة ٦١٩هـ ١٢١٨م، وذلك اعتمادا على مخطط ابن المجاور الذي رسمه للمدينة في تلك السنة. أما المرحلة الثانية، فقد تم تأريخها إلى القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، وذلك اعتمادا على قراءة الفخار الأثري الذي وجد في الطبقات المزامنة لمرحلة بناء الجدار الدفاعي، في حين لم يتمكن علماء الآثار من إعطاء تأريخ للمرحلة الثالثة، نظراً لغياب المادة الأثرية.

- حارات المدينة:

استطاع الفريق الأثري تحديد حارت المدينة القديمة ومكوناتها، بالإضافة إلى معرفة الحارة الأقدم منها وطريقة توسعها، وذلك اعتماداً على التحليل الفراغي لفضاء المدينة، وعلاقته بطوبوغرافية الموقع، والتحليل الوظيفي لبعض الأبنية المنقبة؛ فقد كشف الفريق بأن أقدم حارات المدينة كانت تلك الواقعة في الجهة الجنوبية الشرقية (QSE)، فقد كانت المدينة تتكون فقط من تلك الحارة (Rougeulle, 2010: Fig. 2)، والتي شيدت مباشرة على شاطئ البحر؛ وذلك لأن هذا الجزء من الشاطئ كان الأكثر ملائمة لرسو السفن، وقد تأكدت هذه الحقيقية عند اكتشاف عدد كبير من المراسي الغارقة تحت الماء في ذلك الجزء من الشاطئ (Vosmer, 2004: 399–401). ويشير الدليل الأثري أيضاً إلى أن منازل الحارة القديمة كانت صغيرة الحجم وملتصقه ببعضها، باستثناء عدد من المباني الكبيرة نسبياً. وبعد التنقيب في بعض تلك المباني، تبين ان أحدها كان الجامع الكبير (B12)، في حين فسر مبنى آخر (B14) بأنه كان يُستعمل خاناً أو مدرسة (Rougeulle, 2010: 308).

ويؤكد علماء الآثار على أن المدينة توسعت بعد ذلك على شكل حارات وباتجاهات مختلفة، حيث بنيت الحارة الجديدة في الجزء الشمالي الشرقي (QNE) من المدينة، التي تكونت من منازل كبيرة الحجم ومخازن، وبعد ذلك امتد توسع المدينة باتجاه الشمال الغربي (QNW)، حيث بني ثلاثة تجمعات سكنية يتوسط كلاً منها مسجد صغير. وبشكل عام، فقد استطاع الفريق تحديد أكثر من ٢٠٠ مبنىً داخل المدينة المسورة.

- مقابر المدينة:

كشفت أعمال المسح الأثري عن وجود عدد من مقابر المدينة، منتشرة في المناطق الشمالية (QN) والغربية (QW) والجنوبية الغربية (QSW)، حيث قدر عدد القبور فيها بـ ١٦٠٠ قبر، وامتازت غالبية تلك القبور بالبساطة، باستثناء عددٍ قليلٍ منها كان مبنياً على شكل أضرحة (Rougeulle, 2010: 308).

وكنتيجة لأعمال التنقيب، فقد تم الحصول على معلومات مثيرة ومهمة حول تاريخ مدينة قَلْهات؛ إذ تمكن علماء الآثار من التأكيد على أن المدينة تأسست في حدود عام ٤٩٣هـ\ ١١٠٠م. ونتيجة للدراسة الآثارية المقارنة للمواقع المجاورة، يعتقد أنه وقبل أن تزدهر مدينة قَلْهات على أنها ميناء دولي، كان موقع رأس الحد هو الميناء الرئيسي في المنطقة، ويبعد حوالي ٥٠ كم إلى الجنوب من قَلْهات، وقد اعتمد علماء الآثار في نظريتهم تلك على الكميات الكبيرة من الفخار العباسي، التي عثر عليها في موقع رأس الحد إلى جانب الفخار الصيني (تانجوسونج) وأنواع أخرى من الفخار تعود في أصولها إلى مناطق مختلفة في المحيط الهندي. ويعود تأريخ جميع تلك الأنواع الفخارية إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

ونتيجة مقارنة الفخار ونسبة تواجده في موقعي رأس الحد وقَلْهات، أمكن القول بأن مدينة قَلْهات أصبحت الميناء الدولي الرئيسي للمنطقة في حدود عام٦٠٠م \ ١٢٠٠م، وأنها وصلت إلى ذروة توسعها في حدود القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، فقد كانت المدينة التوأم للميناء الدولي الشهير آنذاك لمدينة هرمز، وذلك قبل تعرضها للتدمير من قبل القوات البرتغالية في عام ١٥٠٨ م، وهجرها نهائياً في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي (Rougeulle, Creissen & Bernard, 2012: 341).

- الجامع الكبير (جامع الجمعة):

كان الجامع الكبير في مدينة قَلْهات هو المعلم المعماري الرئيسي والمميز لها، وقد وصفه الرحالة ابن بطوطة سنة ٧١٩هـ\ ١٣٢٠م عند زيارته للمدينة، ولاحقاً وبعد ما يقرب من٢٠٠ عام من زيارة ابن بطوطة للمدينة، قام البرتغالي ألفونسو دي البوكويرك (Afonso de Albuquerque) سنة ١٥٠٨م بوصف الجامع بتفصيل أكثر دقة، وذلك قبل هدمه وتدميره من قبل القوات البرتغالية في نفس السنة، حيث أصبح أثراً بعد عين، تغطيه ركامات من التراب والحجارة. وشاءت الأقدار لهذا الجامع أن يعاد اكتشافه وتنقيبه من قبل الفريق الفرنسي للآثار؛ حيث إنه خلال الفترة ٢٠٠٨-٢٠١٠م أزالت الحفريات الأثرية العلمية الركامات التي كانت تغطي الجامع، لتسطع الشمس من جديد على ما تبقى من أرضياته وجدرانه، وذلك بعد مرور أكثر من خمسمائة عام على تدميره وطمره. وقد وصفت البعثة الآثارية الجامع وحللت عناصره المعمارية ومخططه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهندسي.

وهنا نود التركيز على الجامع الكبير في مدينة قَلْهات، كونه حالة دراسية نستعرض فيها دراسة مقارنة وتحليلية لطبيعة المعلومة التي يقدمها المصدر التاريخي والمصدر الأثري، وكيفية العلاقة البينية بين علمي التاريخ والآثار في سبر أسرار ماضي الإنسان وتوضيحها.

أولا: المعلومة التاريخية:

كان للجامع الكبير في مدينة قَلْهات حظوة كبيرة عند الرحالة الذين زاروا المدينة، وذلك لأنه أهم المعالم المعمارية للمدينة، فقاموا بتقديم وصف له، مبدين إعجابهم ببنائه وزخرفته. ويعد وصف الرحالة العربي ابن بطوطة، مع اقتضابه، أحد أهم المصادر التاريخية التي اعتمد عليها المؤرخون لمعرفة واقع مدينة قَلْهات وتطورها وازدهارها، خلال حقبة العصور الوسطى؛ فيقول ابن بطوطة في وصفه للجامع الكبير بعد زيارته للمدينة في سنة ١٣٢٠م "ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقاشانيّ وهو شبه الزلّيج، وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى، وهو من عمارة الصّالحة بيبي مريم، ومعنى بيبي عندهم الحرّة" (ابن بطوطة: ج٢، ١٣٦).

وبعد ما يقرب من قرنين من الزمان على زيارة ابن بطوطة لمدينة قَلْهات ووصفه لجامعها الكبير، جاء الغزو البرتغالي ليدمر المدينة بالكامل. وقد قام الفونسو دي البوكويرك (Afonso de Albuquerque) قائد القوات البرتغالية الغازية بوصف الجامع الكبير والحالة التي كان عليها قبل تدميره إياه سنة ١٥٠٨م، حيث وصفه قائلاً "بناية كبيرة جداً تحتوي سبعة أصحن، أرضيتها مغطاة بالقرميد، والجدران مكسوة في البورسلان، والبوابة الرئيسة لها رواق مقنطر كبير، ويوجد به شرفة تطل على البحر وكانت أرضيتها مغطاة بالقرميد، وقد كانت جميع بوابات وأسقف المبنى مبينة بشكل جيد ومحكم"، وقبل تدمير الجامع يذكر القائد البرتغالي لفونسو دي البوكويرك (Afonso de Albuquerque) أنه استعمل لعدة أيام البرج المرتبط بالجامع للمراقبة"[١٠].

ثانياً: المعلومة الأثرية:

لا بد هنا من الإشارة إلى أن المعلومات التي توصل لها علماء الآثار، تعد إضافة نوعية تسد الكثير من الثغرات حول البعد الحضاري للمسجد الجامع من حيث تفاصيل العمارة والنقوش والزخرفة، التي تعكس بدورها مدى التطور الحضاري للمدينة.

وقد حاول عدد من الآثاريين المهتمين بدراسة مدينة قَلْهات الأثرية تحديد موقع الجامع الكبير، وذلك بالدراسة السطحية للموقع، ودون الرجوع إلى المصادر التاريخية، فكانت أولى المحاولات من قبل فريق مشروع التراث البحري العُماني بإدارة توم فوسمر (Tom Vosmer)، ذلك أنه ونتيجة مسحه الأثري للمدينة سنة ١٩٨٩م اعتقد أن الجامع الكبير كان يقع على الساحل، في الحارة الشمالية الشرقية للمدينة (Vosmer, 2004: 399–401)، ولكن تبين لاحقاً من قبل ابراهيم والماحي أثناء المسح الأثري للمنطقة الواقعة بين مسقط وصور، بأن موقع الجامع الكبير يقع بالقرب من ضريح بيبي مريم في الجهة الغربية من المدينة وبعيداً عن البحر (Ibrahim and El-Mahi, 2000: 131)، وأيدهما في ذلك آخرون (Costa, 2002: 58)، إلا أن الفريق الفرنسي وبالاستعانة في المصادر التاريخية، وخاصة الوصف الذي قدمه الفونسو دي البوكويرك (Afonso de Albuquerque)، تعرف على الموقع الحقيقي للجامع الكبير (Rougeullem 2010: 308).

ونتيجة لأعمال التنقيبات الأثرية في الموقع، فقد تمكن علماء الآثار من تقديم الصورة الأفضل والأكثر دقة وتفصيلاً للجامع الكبير؛ وذلك من حيث تاريخ إنشائه، والمراحل المعمارية المختلفة التي مرت على استخدامه متضمنة التغيرات الإنشائية التي حصلت عليه، والتصميم المعماري لكل مرحلة من مراحل استخدامه، وأعمال الزخرفة المعمارية والكتابية التي كانت تزين جدران وأرضيات وأسقف الجامع، وأصول تلك العناصر الزخرفية المختلفة. وهنا يمكن تقديم موجز لأهم نتائج التنقيبات الأثرية في الجامع الكبير، بغية التمكن من مقارنة المعلومات التي يمكن الحصول عليها من قبل علماء الآثار، مع تلك التي يمكن أن يزودنا بها المؤرخون في فهم الحدث التاريخي[١١].

تاريخ الجامع:

يعتقد علماء الآثار بأن الجامع الكبير في مدينة قَلْهات بني خلال فترة حكم بهاء الدين إياز وبيبي مريم (٦٧٨-٧١٤هـ\ ١٢٨٠-١٣١٥م)، ويطابق ذلك ما ذكره ابن بطوطة. وتعود أقدم الطبقات الأثرية فيه إلى فترة (٤٩٣هـ\١١٠٠م)، حيث يعتقد بوجود جامع صغير في نفس المكان الذي بني فيه الجامع الكبير. أما نهاية الجامع، فإنه وحسب المصدر البرتغالي، فقد تعرض للتدمير والحرق بالكامل مع الاجتياح البرتغالي للمنطقة سنة ١٥٠٨م. ولكن ونتيجة التنقيبات الأثرية فإنه لم يعثر على آثار للحريق داخل الجامع، ولذلك يُعتقد بأنه وبعد تدمير الجامع من قبل البرتغاليين، فإن ما تبقى من سكان المدينة، قد أعادوا استخدامه حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي (Rougeulle, Creissen & Bernard, 2012: 341).

المخطط المعماري:

بني الجامع الكبير على أنقاض مبنى قديم، أزيلت معظم أجزائه لغايات بناء أساسات الجامع على الصخر الطبيعي. وقد تكون الجامع من طابقين: الطابق الأرضي، وتقع معظم أجزائه تحت مستوى سطح الأرض على شكل قبو، وكان يضم عدة مرافق منها خزان للماء، وأماكن للوضوء، وغرف للتخزين، ومدخل إلى المئذنة. أما الطابق الأول وقدرت مساحته الداخلية بحوالي (٥٦٠ متر مربع)، فقد كان صحنه الرئيسي يضم عشرين عاموداً مرتبة على شكل خمسة صفوف، يتكون كل صفٍ من أربعة أعمدة (Rougeulle; Creissen& Bernard 2012, Fig. 5)، ويقع المحراب في وسط الجدار الغربي للجامع، (عمقه ١،٦٠م، وعرضه ١،٤٠م)، وقد كان في البداية مزخرفاً بطبقة من القرميد المزجج والقشاني اللامع، وفي مرحلة لاحقة أعيد زخرفته بالجص المصنوع في قوالب مطعمة بقطع من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القرميد. أما المنبر فقد كان مستطيل الشكل (عرضه يبلغ ١،٢٠م وطوله ٣،٨٠م)، بني من حجارة مرجانية وملاصق للجدار الغربي من الجامع على يمين المحراب، وهو يتكون من سبع درجات بقي أربع منها (Rougeulle; Creissen& Bernard: 2012, Fig. 6). وقد دلت التنقيبات الأثرية أن المنبر شهد أربع مراحل من التعديلات؛ فكان في المرحلة الأولى مزخرفاً بقوالب من الجص، ثم بطبقة من الملاط زهري اللون، وبعدها بطبقة من القرميد المزجج، وفي المرحلة الأخيرة غطيت جدرانه بالملاط الزهري.

وكان يتبع مبنى الجامع ساحتان، تقع الأولى في الجهة الشمالية والأخرى في الجهة الغربية. وكان يحيط بهما جدار كبير يشكل حرم الجامع الكبير، ويوجد للجامع عدة مداخل، منها مدخلان خارجيان متقابلان، يقع الأول في الجهة الشمالية الشرقية المطلة على البحر، والآخر في الجهة الشمالية الغربية مرتبط بالمدينة، وهو المدخل الرئيس للجامع، كما وجد أربع بوابات داخلية، جميعها كانت في الجدار الشمالي للجامع.

العناصر الزخرفية:

دلت التنقيبات الأثرية بأن الجامع كان مزخرفاً من الداخل بشكل كبير؛ فكان جدار القبلة مغطى بالقرميد المزجج أخضر اللون، ومزخرفاً بأشكال نباتية وهندسية، وكانت أجزاء أخرى منه مغطاة بالقرميد القيشاني المزجج والمزخرفة بكتابات قرآنية مذهبة، كما غطيت أجزاء أخرى من الجامع بالقرميد مربع الشكل، ومزخرفة بأشكال نباتية وهندسية بارزة، ومطلية باللون الأحمر اللامع على خلفية بيضاء، وكانت جميع أعمدة الجامع مزخرفة بالجبس والقرميد الأخضر المزجج (Rougeulle; Creissen& Bernard 2012, Figs. 8-10).

نتيجة التكامل بين علمي التاريخ والآثار:

قبل عرض النتائج التي توصلت إليها الدراسة، لا بد من التأكيد على جملة من الملاحظات التي تقف عائقاً أمام الكتابة التاريخية المتكاملة والقريبة من الواقع- وقد تمت الإشارة إلى بعضها في متن الدراسة-، ونقصد بذلك تلك الإشكاليات التي تجعل من كتابات المؤرخين يعتريها شيئا من النقص، وهذا ما وضحه المؤرخ ابن خلدون في مقدمته[١٣]:

١- أهواء المؤرخ وعدم الموضوعية بسبب "التشيع للآراء والمذاهب"؛ لأن التشيع أشبه بغطاء على عين البصيرة، يحول بينها وبين التمحيص والنظر، وهما المعول في تبيان الصدق من المزيف.

٢- عدم تحكيم العقل "الثقة في الناقلين"، فمن الضروري بمكان أن يهتم المؤرخ وهو ينقل الروايات والأخبار بالتدقيق فيما ينقله.

٣- اهتمامات المؤرخ المسلم. فقد كان الهمّ الأول للمؤرخين المسلمين تدوين الأحداث السياسية على وجه الخصوص، فلم يهتموا بتدوين أخبار المجتمع وتفاصيل حياته اليومية، ولا بالعمارة وتفاصيلها الهندسية؛ ولذا فإن الكثير من تلك المعالم الحضارية مثل: القصور والقلاع والمنازل، قد اندثرت بفعل عامل الزمن، وهذه المعالم هي التي تعكس مدى تطور مجتمع عن غيره، وبزوالها يختفي أحد مقاييس الحكم على ذلك الرقي والتحضر.

أما المشتغلون بالآثار، فعلى الرغم من أهمية ما يقدمونه من مادة علمية تفيد المشتغلين بالتاريخ، إلا أن عملهم يكتنفه بعض النقص، والذي يمكن تلافي بعض منه من خلال الاستعانة بالمؤرخين الأوائل، ومن صور ذلك القصور:

١- أن الآثاري غير قادر على إعطاء تواريخ دقيقة وتفصيلية مع استعانته بالنظام النسبي أو المطلق (الكربون ١٤). ولعل في الخطأ الذي وقع به علماء الآثار في تحديد تاريخ بناء جدار مدينة قَلْهات، دليلاً على ذلك، مما اضطرهم في النهاية إلى الاستعانة بما كتبه ابن المجاور في كتابه صفة بلاد اليمن (Rougeulle, 2010: 353).

٢- إن طبيعة عمل الآثاري هي التعامل مع المادة الملموسة (الأثر المادي) بقايا ما خلفه الإنسان كأواني الطبخ أو الزينة أو الزخارف... إلخ، ولذا فليس من مهامه وصف طبيعة المجتمع وتفاصيل حياته، لكن هذه اللقى الأثرية ووصفها تكون عوناً للمؤرخ في وصف تفاصيل النشاط الاجتماعي والاقتصادي وطبيعة الحياة اليومية للمجتمع صاحب المكان الأثري (Rougeulle, Creissen & Bernard, 2012: 341).

٣- إن عامل الزمن مهم بالنسبة للنتائج التي يتوصل إليها علماء الآثار، ونقصد بذلك أنهم لا يستطيعون التنقيب في كل المكان الأثري، وبالتالي، فإن هناك أجزاء كثيرة تبقى مجهولة، وبحاجة إلى سنوات طوال للكشف عنها، ومن الخطأ إصدار الأحكام العامة على المكان لمجرد التنقيب به لمرة أو مرات.

٤- تباين آراء الآثاريين في تحديد موقع المسجد الجامع في مدينة قَلْهات؛ فرأى البعض بأن الجامع يقع بالقرب من ضريح بيبي مريم، فيما ذهب فريق آخر إلى تحديد المكان في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة، إلى أن حسم هذا الاختلاف مؤخراً بتحديد موقعه الدقيق (Ibrahim and El-Mahi, 2000: 131).

مما سبق، فإن الدراسة تخلص إلى جملة من النتائج والتوصيات التي ترسخ العلاقة التكاملية بين علمي الآثار والتاريخ، كما هو الحال في التأريخ لمدينة قَلْهات:

- إن الكتابة التاريخية المعاصرة يجب أن تنحو منحًا جديدا في البحث عن مصادر جديدة للحصول على المادة الأولية لكتابة التاريخ، خاصة في ظل غياب المصادر المكتوبة التي تخص فترات زمنية أو أقاليم معينة، كما هو الحال في تاريخ عمان الإسلامي. أضف إلى ذلك فإن بعض المصادر المكتوبة تعتريها أخطاء وتصحيفات، فتأتي نتائج البحث الأثري لتأخذ مكانها الحقيقي كمصدر للمعرفة التاريخية، فإن ما خلفه الإنسان هو دليل وشاهد على وقائع وأحداث في ذلك المكان أو الزمان، فالتراث المادي والمتمثل بالمباني والقصور والقلاع، والأدوات الأخرى المستخدمة في حياته اليومية، وما خلده من تزويق ورسم على المباني، يعكس بشكل جلي المستوى الاجتماعي والاقتصادي، ويبرز في الوقت نفسه الازدهار الحضاري لأهل ذلك المكان.

- تمثل دراسة حالة مدينة قَلْهات في العصور الإسلامية مثالاً حيًا على أهمية علم الآثار في الكتابة التاريخية، فإن غياب المصادر المكتوبة لن تكون عائقاً لكتابة بعض من مفاصل تاريخها الحضاري

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإسلامي بوجه الخصوص، فإن التنقيبات الأثرية وما كشفت عنه، تعكس المستوى الحضاري للمدينة، فاستخدام القاشاني والسيراميك في بعض مبانيها يبرز ذلك المستوى الحضاري والتطور المعماري للمدينة.

- أكدت التنقيبات الأثرية على الصبغة الإسلامية للمدينة، يظهر ذلك بجلاء من خلال تخطيط المدينة، الذي روعي فيه النظام الإسلامي في تخطيط المدن، فالجامع ومرافقه، وتوزيع البيوت، وكذلك الحمامات والمرافق العامة، والتي بمجملها راعت خصوصية المجتمع الإسلامي، فهي تمثل وعياً حقيقاً بتعاليم الإسلام وطبيعته التي انعكست على الواقع المعيش في المدن الإسلامية العمانية، ومنها مدينة قَلْهات.

- إن طبيعة المكتشفات الأثرية في قَلْهات، وخاصة تلك التي استخدمت عمليات البناء أو في الحياة اليومية، تعطي مؤشرات على طبيعة النشاط التجاري الذي شهدت المدينة - كغيرها من مدن ساحل الخليج العربي-مع الشرق، لا سيما إذا علمنا أن مثل هذه الأدوات كان مصدرها الصين وبلاد الهند. فقد أضحت تلك المدن عبر عصورها التاريخية تؤدي دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، مستفيدة من موقعها الإستراتيجي على طرق التجارة الدولية. ولم ينحصر ذلك الدور على الوساطة التجارية ونقل البضائع، بل صاحب ذلك حركة حضارية هامة حيث تسرب عدد من المظاهر الحضارية المختلفة إلى الشعوب التي كانت تتاجر فيما بينها، وأثر بعضها في البعض الآخر، لذا كان أمرا طبيعيا أن يؤثر سكان المدن الساحلية العمانية ويتأثرون بالشعوب التي كانوا يتعاملون معها.

- إن التحصينات التي امتازت بها المدن العمانية الساحلية من أسوار وأبراج مراقبة -وهو ما كشفت عنه المسوحات الأثرية-يعطي مؤشرات على المخاطر التي كان العمانيون يتوقعون أن تأتيهم من جهة البحر. ولعل في الاجتياح البرتغالي للمدن الساحلية العمانية مع مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وما ألحقوه من دمار بهذه المدن تأكيداً لِتلك الحقيقة.

الهوامش:

١- قدم ويلكنسون وصفًا لطبيعة عُمان الجغرافية، يقول فيه: "إنها أشبه بجزيرة يحيط البحر بجوانبها الثلاثة من الخليج العربي، وخليج عدن، وبحر العرب، والرابع بصحراء عظيمة من الرمال وهي الربع الخالي، وإن تركيبة هذه الجزيرة عبارة عن سلسلة من الجبال الطويلة على امتداد ٦٥٠ كم، يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثة آلاف متر في الجبل الأخضر وبعرض ١٣٠ كم" (Wilkinson,1977: 21). وانظر: السالمي، ٢٠٠٠م: ٧٩).

٢- للمزيد حول هذا الموضوع انظر (Dever, 1990).

٣- للمزيد حول استخدام التكنولوجيا في مجال الكشوف الأثرية، انظر: العزاوي، ٢٠١٣: ١١١ - ١١٥.

٤- للمزيد حول دوافع الرحالة العرب التي دفعتهم للقيام برحلاتهم، انظر: حسن، ١٩٤٦م، ٦؛ حوراني: ١٩٥٨: ص١٣ وما يليها؛ زيادة:١٩٦٢: ص١٤٨.

٥- قال ابن المجاور: إن مالك بن فهم من شدة حرصه على تنشيط التجارة في بلده كان يقف على الساحل، فأي مركب يراه يقلع في البحر ينادي أصحابه: قل هات؛ أي قل لهم في دخول البلد، يعني لأهل المركب، فسمي البلد قَلْهات. صفة بلاد اليمن. ابن المجاور، ٢٠١٠: ٣٠١.

٦- للمزيد عن وصول مالك بن فهم إلى عُمان، انظر: العوتبي، ١٩٨٤: ج٢، ١٩٩.

٧- يظهر أن ذلك كان سنة ٣١٨هـ\٩٣١م، فقد انتهزوا سحب الخليفة العباسي المقتدر بالله للقوات العباسية من عُمان بعد أن توصل مع أهل عُمان على تقديم الولاء والطاعة للخليفة مقابل دفع ضريبة سنوية لبيت المال ببغداد (انظر: فوزي، ١٩٧٩: ٤٧).

٨- وانظر ما أورده المؤرخ البرتغالي جوام دي باروشفي كتابه عشريات أسيا: (DE BARROS,1974:42).

٩- (Rougeulle, 2010; Rougeulle, Creissen& Bernard, 2012;) (Rougeulle; Renel; Simsek&Colomban, 2014)

١٠- وهذا ما استدل عليه علماء الآثار على أن الجامع كان يضم مئذنة (Rougeulle, Creissen& Bernard, 2012: 341).

١١- للاطلاع بشكل تفصيلي على نتائج التنقيب الأثري في الجامع الكبير في مدينة قَلْهات الأثرية يمكن الرجوع إلى: Rougeulle, 2010; Rougeulle, Creissen& Bernard, 2012

١٢- للمزيد، انظر ابن خلدون (د. ت): ج١، ١٣-١٩ تحت عنوان في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شيء من أسبابها.

المراجع:

باقر،محمد وبيرنادت باقر، ٢٠٠٨، "قَلْهات في التاريخ العربي، المضمون والتسلسل الزمني للأحداث"، مجلة الدراسات العُمانية، مسقط، العدد ١٥.

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، (١٤١٧هـ) (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧مـ) الرحلة. المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد، (١٤٠٣هـ) (ت ٤٨٧هـ \١٠٩٤م) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت.

الجالودي، عليان، ٢٠٠٣، السير العُمانية مصدرا لتاريخ عُمان. قراءة في مخطوط سير العلماء المحبوبيين، الملتقى العلمي الثاني حول مصادر التاريخ العُماني، منشورات جامعة آل البيت، المفرق/ الأردن.

الحلي، أبو البقاء هبة الله محمد بن نما، ١٩٨٤، (توفي في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) المناقب المزيدية في أخبار الملوك

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأسدية، تحقيق محمد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة، مكتبة الرسالة الحديثة، عُمان.

الحميري، محمد بن عبد المنعم، ١٩٨٠، (ت٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) الروض المعطار في خبر الآثار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر، بيروت.

حوراني، جورج فاظلو، ١٩٨٥، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، القاهرة.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (د ت) (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، تحقيق أبو عبد الله السعيد المندورة، ط٣، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، ١٩٨٧، (ت ٣٢١هـ / ٩٢٤م) جمهرة اللغة، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت.

دفع الله سامية، ٢٠٠٩، العلاقة بين الآثار والتاريخ القديم. دراسة وصفية بأمثلة من تاريخ السودان القديم، مجلة جامعة السودان المفتوحة، الخرطوم، العدد ٢، ٧٥-٨١.

الدمشقي، جعفر بن علي، ١٩٦٦ (عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق البشري الشوربجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

رايس، مايكل، ٢٠٠٢، آثار الخليج العربي (٥٠٠٠-٣٢٣ق.م)، ترجمة صالح محمد علي وسامي الشاهد، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

زكي حسن، حسن، ١٩٤٦، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، القاهرة،

زيادة، نقولا، ١٩٦٢، الجغرافية والرحلات عند العرب، القاهرة.

السالمي، عبد الرحمن، ٢٠٠٠، من مصادر التاريخ والثقافة السير العُمانية، مجلة نزوى، مسقط، العدد ٢٤.

السالمي، نور الدين، ٢٠٠٠، (ت ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، منشورات مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط.

ابن عبد الحق، عبد المؤمن ابن شمائل البغدادي، (١٤١٢هـ) (ت ٧٣٩هـ / ١٣٠٨م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت.

العزاوي، عمر جسام العزاوي، ٢٠١٣، "علم الآثار والتكنولوجيا الحديثة: العلاقة والاستخدام"، مجلة كان التاريخية (الإكترونية)، هولندا، العدد ٢٠.

علي، جواد، ٢٠٠١، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٤، دار الساقي.

العوتبي، سلمة بن مسلم الصحاري، ١٩٨٤، (توفي مطلع ق٦هـ / ١٢م) الأنساب، منشورات وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط.

فوزي، فاروق عمر، ١٩٧٩، مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العُماني: الخليج العربي، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، بغداد.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، ١٩٩٢، (ت٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

ماركوبولو، (١٩٧٠)، رحلات ماركوبولو، القاهرة.

ابن المجاور، يوسف بن يعقوب، ٢٠١٠، (كان حيا سنة٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسمى تاريخ المتبصر، راجعه ممدوح محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

المعولي، أبو سليمان محمد بن عامر، ٢٠١٤، تحقيق سعيد الهاشمي، منشورات وزارة التراث القومي، مسقط.

المقدسي البشاري، محمد بن أحمد بن أبي بكر، ١٩٠٦، (ت٣٧٥هـ / ٩٨٥م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن.

المنذري، محمد بن راشد، ٢٠٠٨، تاريخ صحار السياسي والحضاري منذ ظهور الإسلام وحتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار العلوم العربية، بيروت.

نيبور، كارستن، ٢٠١٣، وصف أقاليم شبه الجزيرة العربية، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، ١٩٩٥، (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) معجم البلدان، دار صادر، ط٢، بيروت.

المراجع الأجنبية:

Albuquerque, 1964, Cometarios do Grande Afonso de Albuquerque, Alfa, Lisbona.

Atkinson, R.J.C1965, Archaeology, History and Science. Cardiff: University of Wales Press.

Barros, Joam DE, 1974, Asia,LISbona.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

356.

Sauer, E.W. (ed.). 2004. Archaeology and Ancient History: Breaking Down the Boundaries. London.

Sauer, E.W, 2004.The Disunited Subject: Human History's Split into «History» and «Archaeology». In: Archaeology and Ancient History: Breaking Down the

Wilkinson, 1977, The Immate Tradition of Oman. Cambridge University Press.

Vosmer T. 2004. Qalhât, an ancient port of Oman: results of the first mission. Proceedings of the Seminar for Arabian Studi.

Binford, L.R. 1962 Archaeology as Anthropology. American Antiquity (1962): 217225-.

Bhacker M.R. &Bhacker B. 2004. Qalhât in Arabian History: Context and Chronicles. Journal of Oman Studies 13: 11–55.

Carter, Robert 2016, Historical Interactions in the Arabian Gulf: Pearls and the Archaeology of Globalization. A lecture presented at the 2nd meeting on the Archaeology of the Arabian Peninsula, CEFAS/LabExDynami. The National Council for Culture, Arts and Letters: Territories, Space Organization, Mobility and Interactions in the Arabian Peninsula, 14th – 15th February 2016, Kuwait.

Costa P.M. 2001. 2002. The Great Mosque of Qalhât. Journal of Oman Studies 12: 55–70.

Dever, William G. 1990 «Archaeology and the Bible: Understanding their special relationship», in: Biblical Archaeology Review 16:3.

Hodder, 1986. Reading the Past. Approach to Interpretation in Archaeology. Cambridge.

Hodder, I. and Hutson, S, 2003, Reading the Past. Cambridge. Ibrahim M.M. & El-Mahi A.T. 2000. A survey between Quriyat and Sur in the Sultanate of Oman (1997). Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 30: 119–136.

Isayev, Elena, 2006. Archaeology # Object as History# Text: nudging the Special Relationship into the Post-ironic. World Archaeology Vol. 38 (4): 599610-.

Renfrew, C. and P. Bahn, 1991 Archaeology and Practice. London.

Rougeulle A. 2010. The Qalhāt Project. New researches at the medieval harbor site of Qalhât, Oman (2008). Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 40: 303–319.

Rougeulle, Axelle; Creissen, Thomas & Bernard, Vincent. 2012. The Great Mosque of Qalhāt rediscovered. Main results of the 2008–2010 excavations at Qalhāt, Oman. Proceedings of the Seminar for Arabian Studies 42: 341–

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Copyright of Journal of Arts & Social Sciences (JASS) is the property of Sultan Qaboos University and its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission. However, users may print, download, or email articles for individual use.

www.manaraa.com